مراجعة كِتاب:

«التّسارع، نقد اجتماعي للوقت» لهارموت روزا

بيسان طي

في قراءة فلسفية وسوسيولوجية، يدرس هارموت روزا (Hartmut Rosa)[1] في كتابه «**التّسارع، نقد اجتماعي للوقت**» (الصادر عام 2010) الأبعاد الاجتماعية والنفسية، والعسكرية والسياسية والدولاتية لعمليات التسريع. يشرحها منطلِقاً من موجاتها الأولى إثر الثورة الصناعية، ثمّ يدرس تغييراتها والدفع المهول الذي تشهده في الحداثة المتقدّمة، وصولًا إلى مناقشة مفهوم نهاية التاريخ أو ما بعد التاريخ.

ينطلق الكاتِب من مسألة رغبة بديهية يكرّرها بشكل عفوي أيّ إنسان، رغبة العيش بشكل هانئ، مقابل الشعور المسيطر بأنّنا لا نملك الوقت الكافي في حياتنا أو يوميّاتنا لإنجاز ما نرغب به، أو ما يتوجَّب علينا، كلّ ذلك على الرّغم من أنّنا نكسب في عصرنا المزيد من الوقت نتيجة ما توفّره لنا الوسائل الحديثة.

انطلاقاً من هذا «الاستنتاج» اليومي البديهي، يبدأ هارموت روزا (Hartmut Rosa) بحثه النقديّ في مسألة الوقت و«التّسارع»، مرتكزاً على أربعة مستندات سوسيولوجية هي البُنية، والثقافة، والصلة بالذّات، والعلاقة مع الطبيعة.

(1) هارموت روزا: فيلسوف وعالِم اجتماع ألماني، مولود عام 1965، من أشهر كُتبه: **الاستلاب والتسريع** *Aliénation et Accélération*

«الوقت» عنصر مهمّ لتحليل ديناميّة العالَم الاجتماعي، ولدراسته ثمّة مفردات ومنطلقات يجدر الإقرار بها، تبدأ من فهم الإحساس بالوقت كعاملٍ ثقافيّ يتمّ التأقلم به أو معه وفق تطوّرات أو تغيّرات البُنى الاجتماعية، ويُذكّر هارموت روزا (Harmut Rosa)بأنّ الطبيعة الجماعية ناتجة عن أصول عائدة إلى فكرة التّزامن.

«التّسارع» كمفهوم وحقيقة ليس وليد اليوم، العودة إلى عصر النهضة ضرورية في استعادة النقاشات حينها حول «الأزمنة الحديثة» التي تلتقي عند اعتبار التجربة المؤسِّسة للحداثة هي قضيّة التّسارع المهول الذي عرفه أسلوب الحياة وتكثيف التجربة الإنسانية، وأنّ الموجة الأولى من «التّسارع» قد وقعت خلال عقدَيْن ممتدَّيْن ما بين عامَيْ 1890 و1910، على أثر الثورة الصناعية.

التحديث والتّسارع: العلاقة المعقَّدة

في قراءة نقدية، يستعرض هارموت روزا(Hartmut Rosa) في دراسته بداية جزءاً من أعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيّين. بالنسبة إلى هؤلاء، تشكِّل الحداثة مسار «الفردانية» والعقلنة والمُفاضلة وتدجين الطبيعة وزيادة القوى الإنتاجية، وكلّها في نظرهم، عوامل ناتجة عن تجربة التّسارع وتفعيل ديناميّة اجتماعية هائلة. ثمّ يستعين روزا بما كتبه كارل ماركس من أنّ الوقت أحد مصادر عمليّات الإنتاج الرأسمالي، ويعود كذلك إلى نظرية ماكس ويبر (Max Weber) الذي يرى أنّ الوقت قابل للتسريع وللتحوّل إلى مال.

يُذكّرنا روزا أيضاً بأنّ التقييم البروتستانتي الرأسمالي للوقت هو جزء من حركة تاريخية غربية هي مسار العقلنة (أو انتصار العقل)، وأنّ عقلنة المسار الاجتماعي عمليّة مرتبطة بتطوّر مفهوم تقسيم العمل، أي التفريق الاجتماعي بين الوظيفة والقيمة.

الحاضر مُتقلّصاً

في تعريف «ما هو التّسارع؟» ينطلق روزا ممّا كتبته الباحثة النمسوية هلغا نووتني(Helga Nowotny) من أنّ «التّسارع لا يعني فقط سرعة مُتزايدة لمسارِ كلّ السياقات الاجتماعية... إنّما يتضمّن نموذجاً وقتيّاً لحراكٍ عامّ يتزايد ليكون في الوقت نفسه نتيجة سياق النقل الخاضع لحال الاقتصاد والتكنولوجيا، مسار نقل الناس والمَوارد والمعلومات والطّاقة الذين يجدر أن يجتازوا مسافات مكانية ووقتية».

يذهب روزا (Rosa) بعد ذلك إلى العلوم الفيزيائية، ويقترح مُعادَلة «نيوتنيّة» (نسبة إلى نيوتن)، حيث «التّسارع هو زيادة عدديّة في كلّ وحدة وقتيّة»(ص87)، والزيادة العدديّة هذه تشمل الطرقات التي نجتازها، وعدد العناصر التي يتمّ تبادلها، والمُنتجات، وعدد الوظائف التي يشغلها المرء في مسيرة مهنيّة، وتغيير شريك الحياة، فضلاً عن عدد وقائع الأفعال في الوحدة الوقتية.

يلفت روزا إلى أنّ تلاقياً يحدث في المجتمع الحديث بين التّسارع التقني وارتفاع إيقاع الحياة من خلال انخفاض المصادر الوقتية، ويشدِّد على أبعاد ثلاثة للتسريع الاجتماعي، هي: التّسارع التقني، وتسارع التغيير الاجتماعي، وتسارع إيقاع الحياة.

لا تخضع هذه الأبعاد للدينامية نفسها، فهي من جهة، تعاني أحياناً من تباطؤ متحرّك تفرضه حدود طبيعية لا يمكن التحكّم بها في مجالات الفيزياء والبيولوجيا والأنتربولوجيا، وإن كانت بعض الجزر المتفلّتة من قوانين التّسارع في حالة تآكل. ومن جهة ثانية، هناك ما يسمّى بالتباطؤ الحركي المقصود، المتمثّل بالإيديولوجيا التي تتّخذ شكل النقد الراديكالي للمجتمع الحديث وثقافته، أيضاً هناك التباطؤ كاستراتيجية للتسريع المفروض من المؤسسات الاجتماعية أو الأفراد، بهدف السيطرة على إيقاع الحياة المهنية والعلائقية واليومية للمجتمع بطريقة أكثر فاعلية.

البُعد الأول للتّسارع هو التّسارع التقني وتسريع نقل المعلومات، والشكل الأكثر ثقلاً للحداثة هو التّسارع التكنولوجي، وقد كان تسريع النقل هو في أصل تجربة «ضغط الوقت». في هذا الإطار يُذكِّر روزا بأنّ التجربة التي يعيشها الفرد في مساحةٍ ما مرتبطة إلى حدّ كبير بالوقت الذي يستغرقه في اجتيازها.

أمّا البُعد الثاني، فيتمثّل بتسارُع التحوّلات الاجتماعية، أي تسارع الإيقاع الذي تتبدَّل خلاله الممارسات وتوجّهات الأفعال وتبدّلات العلاقات الاجتماعية ومنظومات العلاقات، ويقترح روزا في هذا الإطار ما كتبه نيكلاس لوهمان (NiKlas Luhamann) من تعريف التّسارع الاجتماعي باعتباره «ضغط الحاضر». أمّا الحاضر فهو فترة زمنيّة تتمتّع بطابع «الاستمرارية» وبنوعٍ من الثّبات، تترافق خلالها مساحة التجربة مع أُفق الانتظارات من دون الخضوع لأيّ تحوّلات. وإذا كان مفهوم «الحاضر» أو مدّته تتقلّص،

فإنّ لوهمان (Luhamann) يلفت إلى أنّ التغيير الاجتماعي يتحوّل إلى مشكلة نتيجة تنامي الواقع غير المستقرّ للآفاق الوقتية.

تسارع إيقاع الحياة هو البُعد الثالث، ويعني زيادة عدد فصول الفعل (Nombres d'épisodes d'action) والتجارب في وحدة زمنيّة، وذلك مرتبط بالتسريع التقني، وتتمثَّل التجربة الفرديّة لهذا البُعد بتعمّق الشعور بـحالة الطوارئ.

أحدثت عمليّات التسريع العملاق في وسائل النقل، ودفق المعلومات، وتزايد كمّيات الإنتاج التي شهدتها الحداثة، ثورةً في الأساليب المُسيطِرة على فَهْم العالَم، وأثّرت بالتالي على الأساليب الذاتية للطابع الاجتماعي ولكنّها لم تحدِّدها بشكل كامل. ومع التسريع التكنولوجي، كان التحوّل الأبرز في فَهْم المكان والوقت اللذين فقدا وظيفتيهما التوجيهيّة، فشهدت بالتالي علاقة الفرد بالناس وبالأشياء ثورة كبيرة، وقد أدّت الثورة المعلوماتية التكنولوجية إلى قلب مفهوم الحركة الذي راكمته ثورة النقل التي كانت تأخذ الفرد إلى العالَم، فبات العالَم يأتي إلى الفرد.

الوقت اللّاوقتي

عدّلت المسارات، المعبَّر عنها بتعابير، كالعَولمة وثورة المعلوماتية، شكلَ الوقت الاجتماعي والإحساس به؛ وانطلاقاً من ذلك، يبدأ روزا (Rosa) بعرض ومناقشة مفهوم جديد نسبيّاً هو «الوقت اللّاوقتي». ويُذكِّر بأنّ «إيقاع الذاكرة الجماعية» (ص 138)، محدود في امتداده الزمني (ما بين 80 إلى 100 عام)، ما يعني أنّ الشقّ الممتدّ بين أُفق الانتظارات وأُفق التجربة – المميِّز للحداثة– لا يمكن أن يَحدث إلّا مع حدوث تغييرات عميقة على مدى أعمار ثلاثة إلى أربعة أجيال، وإن كان التغيير الاجتماعي – والمقصود به تغيير قناعات ثقافية – يصل إلى إيقاع أسرع من توالي الأجيال، فإنّ هذا التحوّل لا يُنظر إليه كتغييرٍ للبُنى الرّاسخة بل كغموض بنيويّ يحمل الكثير من الفوضى.

تضع عملية التّسارع الاجتماعي هذه الفردَ أمام توارد أكثر كثافة دائماً من المنبّهات الحديثة والعنيفة، والتي تُحدِث آثاراً مثيرة ومشوشة للأفراد غير المهيَّئين بآليات الحماية منها، وخصوصاً أنّ «الحاضر» يتقلّص في مجمل مجالات الحياة، والـ«لا استقرار» يفرض على الأفراد والمؤسّسات مراجعة دائمة لانتظاراتهم، وإعادة تقييم مستمرّ

لتجاربهم، والتّعايش مع الشعور بضرورة التوأمة مع المتغيّرات، كي لا يبلغ الفرد شيخوخة مبكرة تضيع أمامه الفُرص.

هل مفهوم الإيقاع السريع خاصّ بعصرنا؟ يؤكّد روزا (Rosa) أنّ إيقاع الحياة يرتفع بشكلٍ مستمرّ بما يسمح لكلّ عصر أن يؤكّد أنّه يعيش إيقاعاً قياسياً. واختصاراً، يضع روزا (Rosa) تعريفاً لتسريع إيقاع الحياة «باعتباره تكاثر عدد الأفعال أو التجارب، خلال وحدة زمنيّة محدَّدة بسبب الندرة في الموارِد الوقتية» (ص135). ويضيف بأنّ التسريع التقني لا يَفرِض فرضاً ارتفاع إيقاع الحياة، لكنّه يبدِّل المعايير الوقتيّة التي تشكِّل أساس أفعالنا وخياراتنا، وبذلك يصير الشعور بالضغط أحد عوارض ارتفاع إيقاع الحياة، وخصوصاً أنّ المجتمع الحديث يُبجِّل مَن يعاني من ضغط الوقت باعتباره فرداً مُنتجاً ومتميّزاً. وتظهر في الحداثة المتقدّمة سطوة «الموعد النهائي Deadline»، الذي يحدِّد ترتيب توالي النشاطات، ومن تأثيراته ذلك الشعور بأنّه لا يمكننا أن ننجز شيئاً. ويلفت (روزا) إلى أنّ العلاقة بالذّات مرتبطة بالماضي والحاضر والمستقبل، وأنّنا، بنتيجة التّسارع، نشهد على «الذّات المتقلّصة» التي لا تتماهى بشكلٍ كلّي مع أدوارها وعلاقاتها، إنّما تتّخذ علاقة وسائلية تجاه محدِّدات هويّتها. يُعاود روزا (Rosa) الانطلاق من حقيقة مفادها أنّ مجالات التّسارع كلّها ذات سرعة واحدة، ويقول إنّ التسريع الاجتماعي في الحداثة بات مساراً يغذّي نفسه، ويضع التّسارع التقني وتسارع التغيير الاجتماعي وتسارع إيقاع الحياة في علاقة تداول.

الوقت كسلعة

الاقتصاد محدِّدٌ رئيس في الدراسة النقدية التي يقدّمها روزا (Rosa)، فيُذكِّر بأنّ «دراسة ديناميّة التكاثر (أو الإنتاج) ضرورية لفَهْم دينامية التسريع في المجتمع الحديث» (ص 199)؛ فحين يفيض معدّل الإنتاج عن معدّل التسريع تتقلّص الموارِد الوقتية بشكلٍ منفصل عن الوقت الذي نربحه بفضل التطوّر التقني، وتحت شعار «الوقت هو المال والمحرّك الاقتصادي»، يصير التسريع في الأنظمة الرأسمالية فرضاً موضوعياً لا يُمكن تجنّبه، ويُحدث تغييراً في عملية الإنتاج والإنتاجية.

الوقت نفسه يرتدي وظيفة جديدة، يتحوّل إلى سلعة، المقاول أو ربّ العمل، «يشتري»

وقت العاملين وليس نِتاج عملهم. يمكن إذاً الحديث عن اقتصاد أوقات الإنتاج، تسريع الإنتاج يزيد المنافسة ويتحوّل إلى أداة رئيسة في الإدارة الرأسمالية، ثمّ عند إحراز تقدّم (وقتي) واستغلاله لتحقيق أرباح مضاعفة، تفرض منظومة الإنتاج تسريع دَورة الابتكار وتقصير دَورة حياة المُنتَج. ومن هنا التناقض الاقتصادي الكبير، حيث إنّ أداة تقصير وقت العمل تتحوّل إلى أداة لوضع حياة العامل وعائلته في خدمة رأس المال. في هذا الإطار، لن يكون هناك من حاجة للتذكير بأنّ تسريع الإنتاج يفرض تسريع التوزيع، ومن ثمّ تسريع الاستهلاك، لذلك يرى روزا (Rosa) أنّ دينامية التسريع لا تبدأ بالإنتاج، بل بالتوزيع وهي دينامية دائرية. وبهذا المعنى فإنّ المشكلة الرئيسة التي يُواجهها رأس المال تتمثّل في المحافظة على سيولة مُتسارعة للبضائع.

التغيير الكبير الذي يمكن تفريقه – في هذا المنحى – بين ما شهدته «فلسفة» الإنتاج خلال الحداثة، ثمّ في الحداثة المتقدّمة، يكمن في فقدان الساعة (Horloge) لوظيفتها الجذرية كمحدِّد لوقت العمل. فمع الثورة الصناعية تمّ ربط «وقت العمل» بالساعة الميكانيكية، وسيطر مفهوم الفصل المطلق بين وقت العمل ووقت الراحة، وكان الوقت أداةً أساسية من أدوات المجتمع الانضباطي في الحداثة، وفق ميشيل فوكو(Michel Foucault).

مع العَولمة، أُعيد إدخال مفهوم «المهمّة» التي يجدر إنجازها، وانكسر بالتالي التفريق الصارِم بين وقت العمل والوقت الحرّ، وصار العمل جزءاً من عالَم الحياة كلّها.

يتمّثل الثّابت المستمرّ في الحداثة المتقدّمة بأهمّية «اقتصاد الوقت»، أمّا اختفاء الحدود ما بين العمل والحياة الخاصّة فمن تأثيراته حاجة الفرد إلى التكوين المهني المستمرّ. في هذا الإطار، يُذكِّر روزا (Rosa) بضرورة فَهْم تطوّرات الأفكار والمؤسّسات كمسارٍ متوازن وفي علاقة مترابطة، وبأنّ ثقافة الحداثة عنيدة في معارضتها لأساليب «تضييع الوقت». وإذا كان البُعد الديني يحمل الوعد بالسعادة، فقد تمّ استبداله في الحداثة المتقدِّمة بالمال، وخصوصاً في المنظومة الرأسمالية التي تحمل وعداً بحياة جميلة. هذا الوعد يُعَدّ محرِّكاً خارجياً مهمّاً للدينامية الحديثة للتّسارع، لكنْ مع تزايد الخيارات تزداد المخاوف من تفويت أمور مهمّة، وفيض الإمكانات والخيارات هو ما يميّز الحداثة المتقدّمة، والمجتمعات الحديثة تميل إلى تحويل أُفق الانتظارات لتكون أقلّ صلابة، والمستقبل ليصير أكثر تقلّصاً.

الدَّولة والعسكر

بعد تفصيل دقيق للأبعاد الثقافية والاقتصادية للتّسارع، يجيب روزا (Rosa) عن تساؤلات مُبهمَة نراقبها من دون تلمّس صياغةٍ محدّدة لها، تساؤلات عن الدَّولة في عصر التّسارع. يذكِّر بأنّ الدّولة والمؤسّسة العسكرية شكّلا عاملَين مركزيَّين للتّسارع، فالرابط الديناميكي بين الإنتاج والتسريع وُلِد في ظلّ الدَّولة ذات الحدود الواضحة والحديثة، ومن المؤسّسة العسكرية التي تعمل لخدمة هذه الدولة، لكن هذا المفهوم – أي موقع المؤسّسة العسكرية ودَورها في إطار الدّولة – معرَّض «للجرف» في الحداثة المتقدّمة. فقوى التسريع التي تمتكلها كلّ من الدّولة والمؤسّسة العسكرية، تنطلق في اندفاعة قد تتخطّاهما لأنّ هاتَين المؤسّستَين باستقرارهما البنيوي هما من مؤسّسات كبح التسريع. ويَعتبر روزا (Rosa) بيروقراطيّة الدولة من أهمّ عوائق التّسارع، فيما شهدنا اختفاء العوائق الدولية أمام الصفقات والمعاملات التجارية، وهذا ما كانت الدولة القومية الحديثة نفسها قد خلقته، حيث شكَّلت المُنافسة بين الدول الأوروبية بشكلٍ خاصّ سبباً للتمدُّد خارج حدودها ولسياسات المستعمرات، وهي السبب الرئيس للتّسارع التقني المتمثِّل بتسريع وسائل النقل.

يستعير روزا (Rosa) مقولة بول فيريليو (Paul Virilio) بأنّ «السلطة هي سلطة الأكثر سرعة والأكثر مرونة، ومَن يملك استراتيجيّات التسريع وتباطؤ الحركة».

اختفاء الحدود والتّسارع التقني غيّرا معادلات الحروب نفسها، وخصوصاً أنّ القرن العشرين شهد تطوير سلاح الجوّ بشكل كبير. وهنا يُذكّر روزا (Rosa) بأنّ المؤسّسة العسكرية نفسها لعبت دَوراً رئيساً في التسريع التقني وتسريع إيقاع الحياة، بل إنّ شبكة الإنترنت نفسها وُلِدت نتيجة تطويرات تكنولوجية مرتبطة بحاجات وأسئلة عسكرية. لكنّ حرب التسريع صارت سريعة لدرجة لم يَعُد من الجائز خوضها، من هنا يمكن القول إنّ المؤسّسة العسكرية فَقدَت الدَّور الرّيادي الذي كانت تتمتّع به في الحداثة.

باختصار كَتَبَ روزا (Rosa) أنّ أزمة الدولاتية في عصرنا هي أزمة الإدارة البيروقراطية التي تخطّاها التّسارع، لذلك تقوم النواة الإيديولوجية النيوليبرالية، المُنتصِرة على المستوى العالَمي، على سياسة تعطيل التنظيم، وتفكيك البيروقراطية، واختزال دَور

الدولة، بل هي «إيديولوجية غياب السياسة» (ص 255)، ولكنّ روزا (Rosa)، على الرّغم من ذلك، يرى أنّ «الدّولة» يمكنها أن تُشارِك كعضو مُقرِّر في عمليّات التّسارع.

التّسارع والعَولمة وما بعد الحداثة

في الفصل العاشر من الكِتاب يُدخِلنا روزا (Rosa) عالَم عصرنا الحالي، في قلب الحداثة المتقدّمة التي يناقشها، وذلك بالاستناد إلى ما جاءت به الحداثة نفسها.

يبدأ بتعريف العَولمة باعتبارها مَوجة جديدة في تزايد ضغط المكان والوقت، ثمّ يستعيد عاماً مفصليّاً هو عام 1989، الذي شهد التقاء ثلاث مصادفات تاريخية. المصادفة الأولى تمثَّلت بما سمّاه الثورة السياسية من خلال انهيار «العالَم السوفياتي» والانفتاح السياسي والاقتصادي لدول أوروبا الشرقية. والمصادفة الثانية هي الثورة الرقمية. والثالثة الثورة الاقتصادية ما بعد الفوردية (Postfordiste). وفق عالِم الاجتماع البولندي زيغمونت بومان (Zygmunt Bauman)، فإنّ عصرنا الحالي هو عصر الحداثة السائلة، لذا يرى روزا (Rosa) أنّ امتلاك المساحة الأكثر أهمّية بنيوياً وثقافياً أمرٌ لم يَعُد يقوم على مؤسّسات ثابتة مكانياً، بل يُحدّدها ذلك السيلان المستمرّ والمتدفّق للسلطة ولرأس المال وللسلع والبَشر والأفكار والأمراض والمَخاطِر، وغير ذلك. مع العِلم أنّ انتقال البشر أقلّ سرعة من تدفّق الأموال والمعاملات، وهذا ما يخلق واقعاً اقتصادياً أكثر ليبرالية.

الانتقال من مساحة الأمكنة إلى «مساحة التدفّقات» بحسب عالِم الاجتماع الإسباني مانويل كاستيل(Manuel Castells) يتميّز بمنظومة تفتقد إلى المركز، وتعمل وفق شبكة بلا تراتبية مستقرّة، ما يعني ظهور منظومة اجتماعية جديدة للوقت هي «الوقت اللّاوقتي»، وطغيان هذا النموذج شديد الارتباط بالإدراك الثقافي لمفهوم «نهاية التاريخ».

قبل الخوض في هذا النموذج، يُعيدنا روزا (Rosa) إلى سؤال: «من نحن؟». ويقول إنّ إدراكنا لهويّتنا مرتبط بالعلاقة بالزَّمن، وبالمكان، وبمُعاصرينا، وبالأشياء التي تشكِّل جزءاً من محيطنا، وبأفعالنا وتجاربنا. ثمّ يُذكِّر بأنّه من التجارب المؤسِّسة في الحداثة إدراك انتقال التوازن ما بين الحركة والثبات لصالح الدينامية، وهذا ما ينطبق أيضاً على معنى الذّات بالنسبة إلى الفرد، وقد انتصرت الحداثة للـ«فردانية» التي تحمل طابع

الاستقرار، وقد كان تحقيق الهويّة الذاتية يتحوّل إلى مشروع وقتي يتحقّق في زمن حياة الفرد.

لاحقاً ومع تخطّي إيقاع التغيير الاجتماعي عتبة توالي جيلَيْن، لم يَعُد من الممكن التمسّك بمفهوم الهويّة الذاتيّة المستقرّة، وهذا ما يُمكن تلمّسه منذ السبعينيّات من القرن الماضي. تزايدت، في الحداثة المتقدّمة، الخيارات في كلّ ما يخصّ المجالات التي تمسّ الحياة اليومية، وباتت إمكانية المراجعة تعني أنّ الهويّة الشخصيّة صارت «موقّتة» الطابع أو وضعية، وأنّ الهويّات صارت تُبنى ويُعاد بناؤها، من هنا يشدِّد روزا (Rosa) على مفهوم «الوقت المؤقَّت» الآخذ في التنامي في المجتمعات الغربية.

تُواجِه الهويّة المؤقّتة إشكاليّتَين كبيرتَين، الأولى حين يُصبح الفرد مُجبراً على تحديد الأولويّات، والثانية مرتبطة بالطابع الانتقالي للأشياء والمراحل التي يرتبط الفرد بها عاطفياً. لكنّ روزا يرى أنّ الذّات الوضعية قادرة على القيام بمجهود لتحقيق أهدافها و/ أو واجباتها، إلّا أنّها تتراجع في ما يتعلّق بالتزامٍ على مدى العمر.

هذا التسريع الذي يعيشه الفرد يجعل من الكآبة مرض الحداثة المتقدّمة، وذلك نتيجة تجارب الضغط المتمادي وإيقاع التجارب الجنوني ودرجة عالية من الـ«لا استقرار»، وهي ردّة فعل نفسية تتميّز بالشعور بالوقت المتخثّر المعلَّق وغياب المستقبل.

أزمة الوقت السياسي

اعتُبرت الديموقراطية عامل تسريع سياسي منذ ولادة الحداثة. ومع تغيير كبير في المفاهيم المرتبطة بها، اكتسب الوقت دينامية جعلته هو نفسه محرِّكاً للتاريخ.

يتحدّث روزا (Rosa) عن «أزمة الوقت السياسي» (ص 316)، الناتجة عن انتفاء التواقت بين الوقت السياسي والبُنى الزمنية للدوائر الاجتماعية الأخرى، وخصوصاً الاقتصاد والتطوّر التكنولوجي، وما بين التنظيم السياسي والتطوّر الثقافي – الاجتماعي.

أزمة الوقت السياسي تعكس أيضاً أزمة تخلقها إجراءات السياسات الديموقراطية. ويرى روزا (Rosa) أنّ ثمّة إشكالية في الحداثة المتقدّمة تتطلّب نقل المسارات المُنتِجة للقرارات إلى ميادين اجتماعية جديدة.

لكن هل نهاية التاريخ حتميّة؟ يكتب روزا (Rosa) أنّ التّسارع بلغ بتأثيراته حدّاً لا

يمكن الحديث فيه عن نهاية للتاريخ، فالطابع الوضعي يجعل الأحداث السياسية تتحوّل إلى مجرّد فصول، والأزمة الثقافية تنشأ بالتحديد من غياب قدرة فَهْم الواقعة التاريخية في ظلّ ضياع الماضي المرجعي والمستقبل الحامل للمعنى: «التاريخ لن يكون حاضراً ليشهد نهايته»، وإشكالية «ما بعد التاريخ» ليست «نهاية العالَم» بل «نهاية المعنى»(ص 333). من هنا يطرح روزا (Rosa) سؤالَين رئيسَيْن: الأوّل حول الاستمرارية المُمكِنة والمتوقَّعة للتاريخ، والثاني حول الإمكانية النقدية لنظريّةٍ حول التّسارع.

وفي ردّ على السؤال الأخير، يكتب أنّ التّسارع المتفلّت من السيطرة الأخلاقية والسياسية يُظهر قوّة معياريّة متزايدة، لكنّه يُخفي أيضاً إمكانيّات متزايدة لتنامي أمراض التسريع، وخصوصاً في ما يتعلّق بمشاعر الفرد وبقناعاته الخاصّة، فتُستبدل الاستئناس والحميمية بشيء من الاستلاب.

إلّا أنّ روزا (Rosa) لا يرى أمراض التّسارع إلّا كمرحلة انتقالية تتوجَّب دراستها بجدّية في إطار أيّ نظرية نقدية للتّسارع، ويضيف أنّ التّسارع الاجتماعي يضع مسألة الاندماج الاجتماعي في امتحانٍ عسير، كذلك الأمر بالنسبة إلى القدرة على الإنتاج الثقافي، وخصوصاً حيث يكون الإيقاع عالياً لدرجة تهدِّد استمرار التبادل بين الأجيال، وحيث التسريع يهدِّد بكارثةٍ بيئية.

أمّا في رد على السؤال الأول، فيستعرض روزا (Rosa) بعض الأطروحات المتداولة كإعادة إنتاج ما أنتجته الحداثة، ولكن باستبدال المؤسسات بأجهزة أكثر دينامية، أو التخلي عن مشروع الحداثة بما يتعلّق بتفوق الفردانية واستبدالها، أو الدعوة إلى عملية كبح طارئة لإعادة تنظيم قوى التسريع ومحركاته ومؤسساته.

كما يُذكِّر روزا (Rosa) بتيارٍ يرى أن المجتمع الحديث سيدفع ثمن عدم قدرته على الملاءمة ما بين التسريع والثبات، وذلك من خلال إحداث مصائب نووية أو مناخية، أو بتطوير أمراض تنتشر بسرعة ساطعة، أو غير ذلك من المصائب السياسية التي تنتج خاصة، حيث الجماهير المهمشة عن مسار التنمية والتسريع تدخل في مقاومة لمجتمع التسريع.

لكنّ روزا (Rosa) لا ينحاز لأيٍّ من هذه الأطروحات، ويذهب إلى طرحٍ خامس في خلاصةٍ لكلّ ما استعرضه في الكِتاب، وذلك في إجابة تدور حول «نهاية التاريخ»

أو النهاية المتخيَّلة لتاريخ التسريع. فعِلم الاجتماع المُعاصر وفق بيار بورديو (Pierre Bourdieu) يجدر ألّا يرتاح ما لم يقترح «أساليب لمواجَهة الميول المتأصِّلة في النّظام الاجتماعي»، مذكِّراً بأنّه كان على الإنسان أن يعرف جيّداً قوانين الجاذبية ليتمكَّن من اختراع طائرات تتحدّاها»، ومن هنا وِفق الكاتب، يكمن التحدّي اليوم في معرفة القوانين التي سمحت باختراع التّسارع، والمهمّة عسيرة.